بسم الله الرحمن الرحيم

أَنَاشِيدُ بَاكَثِيرٍ
دِرَاسِةٌ دَلاَلِيَّةٌ وَفَنِّيَّةٌ وَإِيقَاعِيَّةٌ

الأستاذ الدكتور بزعيسى أحمد بويوزان
جامعة محمد بن عبد الله ــ فاس
الكلية المتعددة التخصصات ــ تازة
المملكة المغربية

1 ــ توطئة :

عرَّف أبو نصر الفارابي النشيد بأنه « الشِّعْرُ الْمُتَنَاشَدُ بَيْنَ الْقَوْمِ »[1]،و عرفه ابن منظور فقال : « النَّشِيدُ :رَفْعُ الصَّوْتِ ، وَكَذَلِكَ الْمُعَرِّفُ يَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّعْرِيفِ ، فَسُمِّيَ مُنْشِداً ، وَمِنْ هَذَا إِنْشَادُ الشِّعْرِ ، إِنَّمَا هُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ ... و النَّشِيدُ : الشِّعْرُ الْمُتَنَاشَدُ بَيْنَ الْقَوْمِ ، يُنْشِدُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ، ... وَالنَّشِيدُ مِنَ الأَشْعَارِ : مَا يُتَنَاشَدُ »[2] .

و أما في الاصطلاح ، فإن النشيد لون جديد من ألوان التعبير الشعري ، يرتبط ارتباطا وثيقا بمختلف قطاعات الأمة سواء كانت اجتماعية أو سياسية [3]، و هو مرتبط بالشعر الإصلاحي ، لأنه ينادي أحيانا بالحث على العلم و يدعو إلى الوحدة و يمجد الماضي [4] .

و الأناشيد « أشكال و أنواع من حيث موضوعاتها و بناءاته ا العروضية ، فقد كان لروح الحماسة التي تحملها ، و سهولة و عذوبة الكلمات التي تأتي من خلالها ، و للإيقاعات التي تصحبها ، الأثر الكبير في نفوس الناس .»[5]

---

[1] ــ معجم " ديوان الأدب " ، تحقيق د.أحمد مختار عمر و مراجعة إبراهيم أنيس ، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة و النشر ، القاهرة 1974 ، 1 / 404 .

[2] ــ لسان العرب ، ابن منظور ، طبعة دار صادر 1300هـ ، مادة نشد ، 3 / 422 ــ 423 .

[3] ــ الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية 1912 ــ 1956 ، الدكتور إبراهيم السولامي ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، الدار البيضاء ، بدون تاريخ ، ص 149 .

[4] ــ المرجع نفسه ، ص149 .

فيبدو إذن ، من خلال هذا التعريف الاصطلاحي للنشيد ، بأنه لون جديد من ألوان التعبير الشعري المستحدثة في الشعر العربي ، و كان ارتباطه أول الأمر وثيقا بالقضايا السياسية التي كانت تجتاح العالم الإسلامي أيام الاستعمار الغربي ، لتسري بعد ذلك إلى مختلف القضايا التي تمس الحياة الاجتماعية من خلال الهياكل التي تنظمه ، كالمنظمات و الجمعيات أو الأحزاب .

و هذا يعني أن النشيد ، شكل من أشكال التعبير الشعري المعبرة عن حياة الناس والمجتمع، و الملتصق بوجدانه و نبضه الذي يعبر من خلاله ، إما عن الرفض أو القبول لكل ما يستجد في حياته السياسية أو الاجتماعية بالدرجة الأولى .

و يبدو من خلال استعراض ديوان الشعر العربي الحديث ، أن النشيد قد بدأ يشيع في الإبداع العربي مع بداية القرن الماضي ، سواء في المشرق أم في المغرب [6]، و لاشك في أن للظروف السياسية المأساوية التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية تحت السيطرة الاستعمارية ، أثرا بارزا في ميلاد النشيد في الشعر العربي الحديث ، خاصة و أن طبيعة مضمونه ، و طريقة نظمه مع إيقاعه المؤثر ، جعله يتسرب إلى أكبر شريحة ممكنة من المجتمع ؛ خاصة و أن جل الأناشيد التي بين أيدينا منذ بدايات القرن الماضي ، تحمل مضامين إسلامية بارزة ، مما يجعلها أقرب إلى وجدان الأمة، و أكثر تعبيرا عن آلامها و آمالها ، و هي تتطلع نحو الانعتاق و التحرر ، و هو ما يجعلها محفوظة عن ظهر قلب لدى الخاصة و العامة ، لأن المصاب و احد لدى كل شرائح المجتمع .

و هذه المضامين هي التي ظلت مهيمنة على النشيد الإسلامي البحت ، وهو ينأى مع مرور الأيام بنفسه عن الأناشيد التي استحدثت فيما بعد ، و التي أصبحت شعارات لهيئات حزبية أو سياسية أو فكرية ذات مرجعيات مختلفة ، قد تبعد قليلا أو كثيرا عن المرجعية الإسلامية ؛ فَتَشَكَّلَ بذلك نشيد إسلامي خالص يستمد مضامينه من كتاب الله عز وجل ، و من سنة النبي صلى

---

[5] ــ الرؤية و الفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب ، الدكتور أحمد الطريسي أعراب ، المؤسسة الحديثة للنشر و التوزيع ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ، 1987 ، ص 226 ــ 227 .

[6] ــ نعثر في ديوان أحمد شوقي ، طبعة دار العودة 1988 ، على نشيدين ، فضلا عن أناشيد الأطفال ، أولهما " نشيد مصر " ، المجلد الثاني ، 197/4 ، و الثاني " نشيد الكشافة" ،المجلد الثاني 199/4 ، و في المغرب نجد أن من أوائل الأناشيد التي عرفها المغاربة ، نشيد بعنوان " نشيد الشباب " ، للشارع محمد الجزولي، قاله عام 1919م ، راجع الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية ، ص 150 .

الله عليه و سلم ؛ و لا شك في أن لعلي أحمد باكثير رحمه الله ، اليد الطولى في تأسيسه على هذا النحو في الشعر العربي الحديث عموما ، و في الشعر الإسلامي منه بوجه خاص .

و لا أشك في أن باكثير رحمه ، كان يصبو من خلال الأناشيد التي نظمها ، و من خلال استقراء مضمونها ، أنه كان يريد إعادة الوصل بين ماضي النشيد الإسلامي و حاضره ، خاصة وأنه كان يعلم بأن ميلاد النشيد الإسلامي كان في وقت مبكر جدا من الدعوة الإسلامية ، و أن النشيد الإسلامي كان مما يُنْشَدُ بين يدي رسول الله صلى الله عليه و سلم في غزواته بخاصة ، وهو ينشر نور الله جل و علا في دياجير الشرك في جزيرة العرب .

ففي صحيح البخاري نجد أحاديث كثيرة تنص على أن الأناشيد كانت تنشد ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع ، و ربما أنشدها هو أيضا صلى الله عليه و سلم ، من ذلك مثلا ، ما أخرجه البخاري من طريق سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه قَالَ : «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى خَيْبَرَ فَسِرْنَا لَيْلاً فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ لِعَامِرِ بْنِ الأَكْوَعِ أَ لاَ تُسْمِعُنَا مِنْ هُنَيْهَاتِكَ ؟ قَالَ : وَكَانَ عَامِرٌ رَجُلاً شَاعِراً فَنَزَلَ يَحْدُو بِالْقَوْمِ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءٌ لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا وَثَبِّتْ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

وَأَلْقِيَـــنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا إِنَّـــا إِذَا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فَقَال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَنْ هَذَا السَّائِقُ ؟ قَالُوا عَامِرُ بْنُ الأَكْوَعِ فَقَالَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ...»[7]، و قد قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله أثناء شرح هذا الحديث :« ونقل ابن عبد البر الاتفاق على إباحة الْحُدَاءِ، وفي كلام بعض الحنابلة إشعار بنقل خلافه فيه، ومانعه مَحْجُوجٌ بالأحاديث الصحيحة، ويلتحق بالحداء هنا ، الحجيج المشتمل على التشوق إلى الحج بذكر الكعبة وغيرها من المشاهد، ونظيره ما يحرض أهل الجهاد على القتال، ومنه غناء المرأة لتسكين الولد في المهد. »[8] ، ثم خلص بعد ذلك إلى قوله رحمه الله :« ومحصله أن الحداء بالرجز والشعر لم

---

[7] ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، حقق أصله عبد العزيز بن باز ورقَّم كتبه وأبوابه و أحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى 1410هـ 10،1989 / 658 ــ 659 .

[8] ــ نفسه ، 10 / 659 .

يزل يفعل في الحضرة النبوية، وربما التمس ذلك، وليس هو إلا أشعار توزن بأصوات طيبة وألحان موزونة، وكذلك الغناء أشعار موزونة تؤدى بأصوات مستلذة وألحان موزونة »[9] .

ومن ذلك أيضا،ما أخرجه البخاري من طريق أنس بن مالك رضي الله عَنْهُ ، قَالَ:«جَعَلَ الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ الْخَنْدَقَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَيَنْقُلُونَ التُّرَابَ عَلَى مُتُونِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الإِسْلاَمِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

قَالَ يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُجِيبُهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الْآخِرَهْ فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ ، قَالَ يُؤْتَوْنَ بِمِلْءِ كَفِّي مِنْ الشَّعِيرِ فَيُصْنَعُ لَهُمْ بِإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ تُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْ الْقَوْمِ وَالْقَوْمُ جِيَاعٌ وَهِيَ بَشِعَةٌ فِي الْحَلْقِ وَلَهَا رِيحٌ مُنْتِنٌ . »[10]

و بعد أن شرح ابن حجر ما في هذا الحديث من الفوائد ، قال: « وفيه أن في إنشاد الشعر تنشيطا في العمل، وبذلك جرت عادتهم في الحرب، وأكثر ما يستعملون في ذلك الرجز .»[11]

فهذا يعني أن باكثير رحمه الله ، كان يصبو إلى إحياء النشيد الإسلامي من خلال الأناشيد التي نظمها ، ليعيد الفرع إلى أصله ، و يربط وجدان الأمة الإسلامية الحديث والمعاصر ، بينابيعه الأصلية الصافية التي أسس لها شعراء النبي صلى الله عليه و سلم ، خاصة و أن مقاصد النشيد الإسلامي ، حديثه و قديمه ، أصلِه و فرعِه ، هي مقاصد واحدة : ففي صدر الدعوة الإسلامية ، كان النشيد يزرع في نفوس المسلمين روح الإباء و التحدي لإحقاق الحق و إزهاق الباطل و الظلم الذي كان يمارَس عليهم لإطفاء نور التوحيد سواء من مشركي جزيرة العرب ، أو من اليهود الذين كانوا ينتهجون مختلف الأسال يب للقضاء على الدعوة الإسلامية في مهدها ؛ و في العصر الحديث فإن البلاد الإسلامية كانت تعاني المعاناة نفسها من بطش المستعمر و ظلمه ، و سعيه الدؤوب لإطفاء جذوة التوحيد و الإيمان في قلوب ملايين المسلمين .

و عليه ، فإذا كان النشيد الإسلامي من بين أشكال التعبير الأولى التي كانت تذكي الحماس و الثقة ، و التنشيط ــ كما قال ابن حجر رحمه الله ــ في صفوف المسلمين في حلهم و ترحالهم ، فإن باكثير رحمه الله ، آمن بأن هذا النشيد الإسلامي نفسه ، ينبغي أن يظل من بين هذه الأشكال التعبيرية التي تزرع في نفوس الأمة الأمل في إشراق جديد ، فتعود إليها

---

[9] ــ نفسه ، **10 / 665** .

[10] ــ فتح الباري ، **7 / 499** .

[11] ــ نفسه ، **7/ 502**.

عزتها كما كانت أول مرة ، و هو الأمر الذي أكد عليه رحمه الله في كل أناشيده ، خاصة و أنه كان يرى بأن أشد الأخطار السياسية التي كانت تحدق بالأمة الإسلامية ، هي أخطار الاستعمار و الصهيونية [12].

2 ــ الدلالات المهيمنة على أناشيد باكثير :

فَمِنْ خلال دراسة أناشيد باكثير رحمه الله ، يتضح بأن هناك دلالات مختلفة كان يصدر عنها في إبداعه هذا ، لكنها تصب في معظمها في اتجاه واحد ، هو الأمل في تحرر البلاد الإسلامية من ظلم الاستعمار بشتى الوسائل ، حتى تعود إلى المسلمين عزتهم وحريتهم التي ما فتئ الاستعمار الغربي يسعى جاهدا إلى طمس معالمها بكل ما أوتي من قوة .

و لكن الملاحظ عند تحليل كل نشيد على حدة ، هو أن باكثير قد رتب رؤيته العميقة إلى واقع الأمة الإسلامية في علاقتها بالاستعمار، أو حتى بِسِوَاهُ ، ترتيبا واضح المعالم ، حتى ليبدو وكأن هذه الأناشيد تلخص الرؤية الشاملة التي كان يصدر عنها في حياته الإبداعية كلها ، بل و حتى في منهجه الشامل في الحياة ؛ ولعل هذه الرؤية تتضح أكثر من خلال الوقوف عند كل دلالة على حدة ، كما يظهر من خلال الفقرات التالية .

أ ــ الإسلام دين سلام :

و قد عبر عن هذا في نشيد عنوانه«لحن السلام » ، و أعتقد أن باكثير رحمه الله ، من خلال هذا النشيد ، يفصح عن الأصل الأعظم الذي يصدر عنه ، و المنهج الأصفى الذي نذر نفسه لخدمته و للدفاع عنه ، و أكثر من ذلك ، أنه يعبر في ثقة المؤمن عن أن هذا المنهج أو العقيدة هي الوحيدة التي بمقدورها أن تجمع بين البشر ، و أن توحد بين مشاعرهم ، و تعيد إليهم الكرامة الإنسانية التي قتلتها الضغائن و الأحقاد و الحروب ، فحادت بها عن مستوى التكريم الإلهي الذي كرم الله عز وجل به الإنسان أول مرة ، يقول رحمه الله :

لَحْــنٌ جَمِيــلٌ طَـــابَ فِـــي الأَسْمَـــاعِ لَحْنــاً
وَاسْــمُ الــسّــلاَمِ
يَحْمِي شُعُــوبَ الأَرْضِ أَنْ تُطْــحَــنَ طَحْــنــا
نَدِيــنُ دِيــنَ الْــحُــبِّ نَحِــبُّ كُــلَّ شَــعْــبِ
حُــبَّ الْحَيــَاةِ لِلتُّــرْبِ حُــبَّ النَّــدَى لِلْعُشْــبِ

[12] ــ " الأعمال المجهولة في مسرح باكثير الاجتماعي " دراسة للدكتور أبو بكر حميد ، نشرت في مجلة الأدب الإسلامي ، العدد 38 ، المجلد العاشر ، 1424هـ/ 2003 .

لَحْــنُ الــسَّــلاَمْ
لاَ حَــرْبَ مُنْذُ الْيَوْمِ

نَدِيــنُ دِيــنَ الْــحُــبِّ وَالْحُــبُّ أَسْمَــى دِينْ
نُحِــبُّ كُــلَّ شَــعْــبِ مِنَ الْغَــرْبِ أَوْ فِي الصِّينِ
حُــبَّ النَّــدَى لِلْعُشْــبِ يَضُمُّــهُ فِـــي لِــيــنْ

لَحْــنُ الــسَّــلاَمْ

الأَرْضُ وَالــسَّــمَــــاءْ يَحْــدُوهُــنَّ الْــحُــبُّ
يَهِمْــنَ السَّنَــا وَالْمَــاءْ فَيُنْبِتُــهُــنَّ الْــعُــشْبُ

لَحْــنُ الــسَّــلاَمْ

وَكُلُّ شَيْءٍ فِــي الْكَــوْنْ بِالْــحُــبِّ مَــحْــكُــومْ
بِيَدِهِ السَّخَــاءُ وَالْعَــوْنْ وَالْــحَــظُّ مَــقْــسُــومْ

لَحْــنُ الــسَّــلاَمْ

مَــا لِلْــوَرَى يُــعَــادِي بَعْضُــهُــمْ بَــعْــضَــا
بِالْــحَــرْبِ وَالْــجِــلاَدِ قَــدْ شَوَّهُــوا الأَرْضَــا

لَحْــنُ الــسَّــلاَمْ

لاَ حَــرْبَ مُنْــذُ الْيَــوْمِ بَيْــنَ بَنِــي الإِنْــسَــانْ
فَكُــلُّ قَــوْمٍ قَــوْمِي وَفَــازَ ذُو الإِحْــسَــانْ

لَحْــنُ الــسَّــلاَمْ

بِالْــحُــبِّ وَالــسَّــلامِ سَنُسْــعِــدُ الــدُّنْــيَــا
نَعِيــشُ فِــي وِئَــامِ لاَ ظُــلْــمَ لاَ بَــغْــيَــا

لَحْــنُ الــسَّــلاَمْ

لَحْــنٌ جَمِيــلٌ طَــابَ فِــي الأَسْمَــاعِ لَحْنــاً [13]

---

[13] ــ هذا النشيد وكل ما سأستشهد به من الأناشيد ، أفادني به أخي الفاضل و الباحث الجادُّ سعادة الأستاذ الدكتور محمد أبو بكر حميد ، حفظه الله ، حيث أرسل إلي سعادته كل أناشيد باكثير رحمه في نسخة كاملة مرقونة تحت عنوان " أناشيد باكثير ، مختارة من ديوان علي أحمد باكثير ، الأعمال الشعرية الكاملة ، جمع وتحقيق د . محمد أبو بكر حميد ، ضمن مجموعة الأعمال الكاملة لباكثير ــ الناشر : وزارة الثقافة اليمنية ــ صنعاء 2010 م (تحت الطبع) ، و لسعادته الشكر الجزيل على هذه الأريحية .

فالشاعر يجول بعينيه في شرق البلاد و غربها ، فلا تقع إلا على الصراعات و الحروب ، وكأن شعوب الأرض قد سئمت من هذا النمط من الحياة ، فتبدو تواقة إلى الحماية من هذا التطاحن و الظلم و البغي لتعيش في سلام ووئام ، و لن تجد الإنسانية هذه الحماية إلا في ظل الإسلام الذي هو مشتق من السلام ، و الذي هو أصلا ، من أسماء الله جل وعلا .

فإذا كانت الحروب و الصراعات تبيد البشر و تطحنهم طحنا ــ كما قال رحمه الله ــ فإنهم في حاجة إلى بديل عن هذا التطاحن ، أي أنهم في حاجة إلى حياة ، أو إلى من يعيد الحياة إلى الإنسان ، و لن يكون ذلك إلا بالسلام و الإسلام ، حيث الوئام و العدل ؛ و الأجمل في هذا السياق ، أن باكثير رحمه الله ، قد عمد إلى التعبير عن الأمل و الحب بين الإنسانية كلها ، بتعبير إيحائي جميل ، و بخاصة في قوله « حُــبَّ النَّــدَى لِلْعُشْــبِ » ، و هي عبارة تحمل دلالات عميقة تعبر عن كل معاني الحياة و الوداعة ، لأن كلا من الندى و العشب ، رمز للحياة والاستمرار ، بما يدلان عليه من الخصب و الإمراع الذي تتحرك معهما دواليب الحياة في أسمى معانيها ، بعيدا عن التطاحن و الصراعات التي لا تحمل في طياتها إلا معاني القحط ، و كل عناصر الموت و الفناء.

فكأنه بذلك يضع بين يدي المتلقي صورتين متضاتين تمام التضاد : صورة الحياة التي يحيل عليها الندى و العشب ، و صورة الطحن ، مع كل ما يتبادر من خلالها إلى الأذهان من صور الخراب و الموت ، ليترك المتلقي بعد ذلك يختار من الصورتين أَلْيَقَهُمَا به ؛ و لا شك في أن الأليق بالفطرة الإنسانية السوية ، أن تختار كل ما يمت إلى الحياة الكريمة من وئام و سعادة ، و هو المنهج المختار لدى الشاعر ، لأنه منهج ينبع من رحم الإسلام الذي يكفل الحياة الكريمة لكل الناس .

و بالتالي ، فإنه من الطبيعي جدا أن يستنكر الشاعر على من يختار غير الإسلام منهجا في الحياة ليعيش أبد الدهر بين القتل و الدماء ، يقول :

لَحْــنُ الــسَّــلاَمْ

مَــا لِلْــوَرَى يُــعَــادِي بَعْضُــهُــمْ بَــعْــضَــا
بِالْــحَــرْبِ وَالْــجِــلاَدِ قَــدْ شَوَّهُــوا الأَرْضَــا

فالحرب و الجلاد مظهران من مظاهر تشويه الحياة الإنسانية ، و عليه ، فهما زَيْغٌ عن الطريق الذي ينبغي أن يعيش فيه الإنسان ؛ لذلك ، فمن الطبيعي أن يستهجن الشاعر هذا السلوك المنافي للفطرة الإنسانية ، و يشدد في النكير على من يسلك هذا الدرب المعبد بالدماء ؛ و اللافت

للانتباه ، أن الشاعر رحمه الله ، لا يُحَمِّلُ المسؤولية لكل بني الإنسان ، و إنما يحملها للغرب الاستعماري الذي زاغ فعلا عن السلوك الإنساني القويم ، فتوحش و تكالب على بلاد المسلمين أملا في أن يخنق «لحن السلام» ، و أن يطفئ جذوة الإسلام ، و هو ما يتضح في نشيد «إلى أندنوسيا الباسلة» ، حيث يقول :

مَا يُرِيدُ الْغَـرْبُ مِنْهَـا؟ إِنَّهَـا تَبْغِـي السَّلاَمَـا
إِنّمَـا تَدْفَـعَ عَنْهَـا مَنْ بِهَـا رَامَ اهْتِضَـامَا
اِسْـلَمِي يَا أَنْـدَنُـوسْـيَا

فإذا كان الشاعر هو الذي أنشد «لحن السلام » عشقا لكل مظاهر السلام النابعة من رحم الإسلام ، فهو هنا يسير في هذا النشيد على المنهج نفسه ، فأندنوسيا ــ مولده ــ لا تريد سوى السلام ، و لم تختر من مناهج الحياة إلا الإسلام ، فماذا يريد الغرب منها ؟ و بأي حق يريد أن يهضم حقها في السلام ، فكأني به يحدد الضحية و الجلاّد ، فأندنوسيا ، و من خلالها العالم الإسلامي كله ، قد اختارت دين الإسلام منهجا في الحياة ، بينما الغرب طغا و تجبر على هذه البلاد ، لأنه اختار الحرب منهجا له في الحياة ، فكان طبيعيا ألا يلتقي الطرفان ، و أن ينشأ بينهما الصراع و التضاد ، تماما كما ينشأ الصراع و التضاد بين الحرب و السلام ، وبين الموت والحياة.

ب ــ الأمل في مستقبل جديد :

إذا كان الأصل الذي يصدر عنه الشاعر هو السلام و الإسلام ، كما رأينا ، فإنه من الطبيعي جدا أن يثور الشرق المسلم دفاعا عن كرامته ، و حرصا على منهجه في الحياة ، و تَوْقاً إلى الخصب و الإمراع و الحياة الكريمة مهما كلفه ذلك من ثمن ، لأن الثورة آنئذ مُبَرِّرٌ مَعْقُولٌ ، لذلك نجد أن نوازع الثورة و التمرد فارت في نفس الشاعر رحمه الله ، و هو يدفع بأمته إلى التحدي و الإباء لتستعيد عزتها و إشراقها الذي عاشت معه أمدا طويلا قبل أن يجتاحها الغرب المتوحش ، يقول في نشيد «لك العلا يا ليبيا» :

تَأَلَّقِـي عَلَـى الدُّنَـا تَلأْلُئِـي كَالْـكَوْكَـبِ
وَلْتُشْـرِقِي عَلَى الْوَرَى بِنُورِ مَجْـدِ الْعَـرَبِ
هُـمْ أُمَّـةُ الْمُسْتَقْبَـلِ وَهُـمْ مَنَـاطُ الأَمِـلِ
لِلْعَـالَـمِ الْمُـزَلْـزَلِ وَعَيْشِـهِ الْمُضْطَـرِبِ

فالشاعر يبشر بالانبعاث الذي اجتاح أمته لتشق طريقها نحو المستقبل في ثقة و ثبات ، فهذه ليبيا ترفع التحدي ، وتثور للكرامة الإسلامية ضد الاستعمار الغربي ، و كأنها بذلك لا تنتقم لنفسها فقط ، و إنما تنتقم للأمة الإسلامية بأكملها ، وهذا ما حمله على هذا الانتشاء و هو يح س بالأَنَفَةِ و الاعتزاز ، فما تزال في جسد هذه الأمة عروق تنبض بالحياة ، لذلك لم يتمالك الشاعر أن وظف معجما يشعُّ بالألق و الأمل « تَأَلَّقِـي ، تَلأْلَئِـي ، بِنُورِ المجـد،أُمَّـةُ الْمُسْتَقْبَـلِ مَنَـاطُ الأَمَـلِ» ، كل هذا وسط معجم آخر له د لالته الخاصة «عَالَمٍ مُزَلْزَلٍ ، عَيْشٍ مُضْطَرِبٍ » .

حيث نجد باكثير رحمه الله ، يرسم مرة أخرى صورتين متضادتين : صورة الأمل و الإشراق و النور ، و هي تغمر أمته من كل جانب ، و صورة مغايرة قاتمة مظلمة ، هي صورة العالم المزلزل المضطرب بالحروب و الدماء ، لكن الْغَلَبَةَ و الهيمنة للصورة الأولى كما يظهر بوضوح من هذه الأبيات .

و هذه الصورة ، صورة الإشراق و الانبعاث ، نجدها أيضا في تعبير أثيري خلاب ، ينتشي معه الشاعر أيما انتشاء ، و هو يتحدث عن اليمن بلدِهِ الأصلي ، في نشيد «دولة الجنوب» ، حيث يقول :

يَا دَوْلَـةَ الْجَنُـوبْ يَـا بَلْسَمَ الْجِـرَاحْ
فِي ظُلْمَةِ الْخُطُـوبْ أَشْرَقْتِ كَالصَّبَـاحْ
فِـي حَوْمَةِ الْجِهَـادْ وَالْحَـرْبُ فِي ضَرَمْ
وُلِدْتِ فِـي مِهَـادْ الْعِـزِّ وَالشَّـمَمْ
وَافَـى بِكِ الْقَضَاءْ لأُمَّـةِ الْـعَـرَبْ
بُشْـرَى مِنَ السَّمَاءْ بِالنَّصْـرِ وَالْغَلَـبْ
اللهُ أَكْـبَـرُ فِي يَوْمِـكِ الْعَظِيـمْ
عَـادْ وَحِمْـيَـرُ هَبَّـا مِـنَ الرَّمِيـمْ
يَمْشِي مَعَ الْيَمَـنْ فِـي دَارَةِ الشَّـرَفْ
وَالْوِحْـدَةُ الثَّمَـنْ وَالسُّؤْدَدُ الْهَـدَفْ
لِـوَاؤُكِ الْجَدِيـدْ يُمْنٌ عَلَى الْعَـرَبْ
فَالْيَمَـنُ السَّعِيـدْ مِيـلَادُهُ اقْتَـرَبْ

فنلاحظ هنا أن الشاعر يطوي التاريخ طيا ، ليعود باليمن إلى زمن الأَقْيَالِ و التَّبَابِعَةِ ، بكل ما يحمله من وهج التاريخ ، و ثياب العز ؛ ف «عادٌ و حِمْيَرٌ» ، لم يموتا إلى الأبد ، فقد هبا من جديد ، و انبعثا من الرميم مع أحفادهم الذين أوقدوا مشاعل التحدي ليصنعا «اليوم العظيم » اعتمادا على « الله أكبر» ، فكأن هذا البعث الجديد ، قد صنعته المرجعية الإسلامية التي يراها الشاعر ، وهو مُحِقٌّ ، مرجعيةً قادرةً على صنع تاريخ أكثر إشعاعا مما كان عليه من قبل ، حيث يجتمع « الشرف الْمُؤَثَّلُ و الْمُتَأَصِّلُ » في أهل اليمن ، إلى جانب الدعوة إلى «الوحدة» ، سعيا إلى « العلا و السؤدد» ب« لِوَاءٍ جديد» ، يحمل الْيُمْنَ إلى كل البلاد الإسلامية ، لتشهد ميلادا جديدا على وشك الحدوث .

و هنا نلاحظ أن الفكرة التي ينطلق منه ا الشاعر ، و هو يجول في رحاب أمته الإسلامية ، هي فكرة ثابتة ، كان يرغب كل الرغبة في تحقيقها على أرض الواقع ، فهنا يقول عن اليمن :

فَالْيَمَــنُ السَّعِيــدْ مِيــلاَدُهُ اقْتَــرَبْ

و من قبل قال عن ليبيا :

هُمْ أُمَّــةُ الْمُسْتَقْبَلِ وَهُــمْ مَنَــاطُ الأَمِلِ

فالميلاد الجديد ، و أمة المستقبل ، كلاهما هَمٌّ كان يراود الشاعر رحمه الله ، و يريد أن تعيشه أمته حقيقة ، لتخرج من قيد الاستعمار و الْمَخَاضِ ، إلى أفق التحرر و الميلاد ، لتستعيد بذلك عزتها من جديد ، فيلتئم الماضي الْمُشْرِقُ مع الحاضر الْمُنْبَعِثِ، لتشكيل مستقبل المجد و الحرية .

ج ــ الدعوة إلى الحرية :

إن تحقيق العنصر السابق الذي هو الأمل في مستقبل جديد ، لا يتحقق عند باكثير رحمه الله ، إلا بالتمرد عن قيود الاستعمار ، و تحقيق الانفصال عنه مهما كلف ذ لك من ثمن ، لذلك فإن التغني بالحرية شغلت حيزا مهما من أناشيده رحمه الله ، لأنها الهدف الذي يريد ، و الأمل الذي يتوق إليه ، خاصة و أنه يبصر بِنَاظِرَيْهِ كيف أن الغرب الاستعماري يعيث فسادا في كل بلاد المسلمين بلا استثناء ، يستعبد أهلها و يستنزف خيراتها ، و يسعى ليل نهار إلى نسف دينها ومعتقدها ، فكل ثورة أو تمرد على الاستعمار ، يرى فيها باكثير رحمه الله خطوة على درب الحرية للعالم الإسلامي كله ، يقول مخاطبا ليبيا :

جَمَعْــتِ شَمْــلَ قَوْمِنَــا فِــي شَرْقِكُمْ وَالْمَغْــرِبِ
فَأَنْــتِ بُشْــرَى لِلدُّنَــا بِقُرْبِ بَعْــثِ الْعَــرَبِ
حَرَّرْتِ مُلْكَ الْعَــــرَبِ عَلَى تُخُــومِ الْمَغْــرِبِ

فَكُنْتِ أَقْــوَى سَبَــبِ لِجَمْــعِ شَمْــلِ الْعَــرَبِ

فلا يخفى ما هذا المقطع من تجسيد للاتساق التام بين أفكار باكثير رحمه الله ــ كما قلت سابقا ــ و هو ينظر إلى كل البلاد الإسلامية ، فعن اليمن يقول : « وَالْوِحْدَةُ الثَّمَنْ » ، و هنا عن ليبيا «جَمَعْــتِ شَمْــلَ قَوْمِنَــا»،وهناك قال عن عاد و حِمْيَرٍ « هَبَّا مِنَ الرَّمِيمْ »،و هنا يقول عن ليبيا«بِقُرْبِ بَعْــثِ الْعَــرَبِ»، فالحلم الأكبر الذي يريد الشاعر تحقيقه هو الحرية ، لكن الطريق إليها لا يكون إلا بالوحدة ، و بانبعاث الهمم ، و إيقاظ الضمائر من جديد .

فكأنه بذلك يعبر و بعمق عن أن سبب غياب الحرية في العالم الإسلامي اليوم ــ في زمن باكثير رحمه الله ، و ما يزال الأمر كذلك إلى الآن ــ إنما يكمن في التشتت و التفرق الذي يسعى الاستعمار بكل قواه إلى تحقيقه و زرعه بين أعضاء الجسد الإسلامي كله ، مغربا و مشرقا ، بالدسائس و الكيد الذي يتقنه أيما إتقان ، و كل هذا من أجل أمرين في غاية الأهمية ، حام حولهما باكثير رحمه الله في كل إبداعه شعرا و نثرا ، و هما :

أ ــ تحقيق الانفصال بين حاضر الأمة الإسلامية و تراثها المجيد .

ب ــ قتل الرغبة في ضمائر المسلمين في العودة إلى هذا التراث و تَزْهِيدِهِمْ فيه .

لهذا فإننا نلاحظ في أناشيد باكثير رحمه الله حَوَمَاناً كثيرا حول ضرورة الوحدة بين المسلمين أنفسهم ، و الوحدة بين حاضرهم وماضيهم ،كما يظهر من خلال إصراره الشديد على دلالات«البعث» و«الميلاد الجديد»،وهما الطريق الوحيد نحو«الأمل و المستقبل والحرية» .

ففي المقطع أعلاه عن ليبيا ، بَنَى الحرية على جمع الشمل ، فكأنه بذلك يقول بأن الوحدة الصغرى بين أبناء ليبيا ، هو الذي حقق الحرية ، تماما كالوحدة الكبرى بين أبناء الأمة الإسلامية ، التي هي الطريق الوحيد نحو الحرية الكبرى للعالم الإسلامي ، ليشق طريقه نحو « العلا و الميلاد الجديد» ، و هذا ما يعبر عنه بوضوح و هو يخاطب أندنوسيا ، حيث يقول :

اِسْتَقَلَّــتْ أَنْدَنُوسْــيَــا وَهْيَ لِلْكُــلِّ صَدِيقَــةْ

هَبَّتِ الْيَــوْمَ لِتَــحْيَــا حُــرَّةً وَهْــيَ خَلِيقَــةْ

اِسْــلَمِي يَــا أَنْدَنُوسْيَا

.... اِسْلَمِي يَا دُرَّةَ الإِسْلاَ مِ فِــي الشَّرْقِ الْقَصِــيْ

يُشْــرِقُ الْقُــرْآنُ مِنْهَــا فِــي بِسَاطٍ سُنْــدُسِيْ

اِسْــلَمِي يَــا أَنْدَنُوسْيَا

يُشْــرِقُ الْقُــرْآنُ مِنْهَــا فِــي سُهُــولٍ وَجِــبَالِ

كُلُّهَــا مَثْــوَى نَعِيـــــمٍ   كُلُّهَـــــا مَجْــلَى جَلاَلِ
إِسْــلَمِي يَـــا أَنْدَنُوسْيَا
إِنَّ قُــرْآنَــكِ يَـــأْبَــي   أَنْ تَــذَلِّـــــي لِــقَــوِيْ
.... إِنَّمَـــا الْعِــزَّةُ لِــلّـــــــــهِ تَعَــالَــى وَالنَّـــبِـــــيْ
إِسْــلَمِي يَـــا أَنْدَنُوسْيَا.....

فالشاعر يبني النتائج على المقدمات لتحقيق الهدف الأسمى ، الذي هو الحرية و العيش تحت ظلال القرآن الكريم و سنة النبي صلى الله عليه و سلم ، فإذا كانت النتيجة هي الاستقلال / الحرية ، فإنها انْبَنَتْ على مقدمة هي هبوب/ انبعاث أهل أندنوسيا ، لأنهم عشاق الكرامة ورافضو المهانة ، و بتحقيق الحرية ، تحقق الهدف الأكبر الذي هو إشراق القرآن الكريم على أندنوسيا ، وهذا يعبر مرة أخرى على أن الشاعر رحمه الله ، يرسم صورتين متضادتين ، هما :

أ ــ صورة الاحتلال و الإذلال الذي غيّب الحرية ، و أطفأ نور القرآن الكريم ، و هي صورة مظلمة و قاتمة .

ب ــ صورة الانبعاث و التمرد الذي حقق الحرية و الاستقلال ، فأشرق نور القرآن الكريم من جديد على أندنوسيا ، و هي صورة ، كما هي واضحة في النص ، مشرقةٌ و مضيئةٌ .

و كأني بالشاعر بهذا التعبير ، يلفت نظر الأمة الإسلامية إلى أن الهدف الأكبر للغرب الاستعماري ، إنما هو إطفاء نور الله عز وجل في العالم الإسلامي ، ليحل محله عقيدته هُوَ ، إمعانا في إذلال الشرق المسلم ، و سعيا حثيثا منه إلى تحقيق الهدفين المشار إليهما قبل قليل ؛ لكن الأندنوسيين فهموا المخطط فرفضوه ، فكان التمرد و الثورة لاستعادة العز المفقود ، وضحوا من أجل ذلك بكل شيء مما تحدث عنه في باقي النص ، فحققوا الحرية و أشرق القرآن الكريم ، وعادت العزة الْمُغَيَّبَةُ«وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ » المنافقون: 8 .

و لكن تحقيق هذا الهدف في أندنوسيا ، و من خلالها في العالم الإسلامي ، ليس سهلا و لا ميسرا ، فالطريق إليه مفروش بالتضحية و الفداء و الجهاد ، لذلك فإن عنصر الجهاد أخذ حيزا هاما من أناشيد باكثير رحمه الله يستحق وقفة خاصة .

د ــ دلالة الفداء و الجهاد :

سبق أن قلت بأن باكثير رحمه الله يبني نتائجه على مقدماته ، كما أنه يشترط دائما لتحقيق هدف لاحق ، تحقيقَ هدف سابق عنه ، لابد من المرور منه لولوج الهدف الذي يريده ؛ و عليه ، فإن تحقيق الحرية لشهود إشراقة القرآن ، لابد من التضحية و الجهاد ضد الغرب الاستعماري ؛

لهذا نجد أن هذه الدلالة هي الأكثر هيمنة على أغلب أناشيد باكثير رحمه الله ، خاصة و أن العالم الإسلامي آنئذ ،كان يرزح تحت نَيْرِ الاستعمار في كافة بلاد الإسلام ، لهذا استوجب منه رحمه الله التركيز على الجهاد من أجل التحرر و الاستقلال .

و الملاحظ في هذا الصدد ، أن باكثير رحمه الله ، و هو يتحدث عن الجهاد ، يتحدث بحسه الرهيف عن جهادين متكاملين لكل منهما وقع خاص في النفس ، و هما :

أ ــ الدعوة إلى الثورة و الجهاد لتحرير كل بلدان العالم الإسلامي .

ب ــ تخصيص أبناء فلسطين بخطاب خاص لمزيد من الإصرار على مقاومة العدو الصهيوني .

فأما العنصر الأول ، فإننا نلاحظ أنه يخاطب فيه أبناء مختلف بقاع العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، للثورة ضد الاستعمار ، و بكل ما أوتوا من قوة لاستعادة حريتهم و كرامتهم ، حيث نلاحظ أنه يعمد إلى توظيف معجم حماسي بامتياز ، و الأناشيد ما وضعت أصلا إلا للحماسة كما قلنا ، يجسد روح الثورة و التمرد التي كانت تشتعل بين جوانحه ، يقول مثلا ، في نشيد «المغرب العربي» :

إلَـى الْجِهَادِ يَـا أُسُودَ الْمَغْرِبِ   بِالنَّـارِ والحَدِيدِ والدَّمِ الأَبِيّ
حَتَّى تَضِيءَ الشمْسُ أَرْضَ المَغْرِبِ   وَطَهِّروا حِمَاكُمُ الحرَّ الأبِيّ
مِـنْ رِجْسِ كُـلِّ وَغْـدٍ أَجْنَبِي   إِلَـــــى الْجِـــهَــادْ

و هذا الحماس نفسه نجده في مخاطبته أهل ليبيا ، فيقول :

شَعْبُكِ الْمَجْـدَ أَهَـابْ   أَنِ اقْتَحِمْ مِنْ كُلِّ بَابْ
مَا دُونَكَ الْيَوْمَ حِجَابْ   يَا أَيُّهَا الشَّعْبُ الأَبِـيْ
لَكِ الْعُلاَ يَـا لِيبْيَـا
بَنُوكِ أَبْطَالُ الْكِفَـاحْ   بَنَوْا عُلاَكِ بِالسِّلاَحْ
عَلَى السُّفُوحِ وَالْبِطَاحْ

فالشاعر يؤكد على أن بناء المجد و العلا ، لا يكون إلا على الأسنة و الرماح ، وباقتحام كل باب على العدو المعتدي ، فما دام العدو يأتي على الأخضر و اليابس في بلاد المسلمين ، وتسلط عليهم بالحديد و النار ، فلابد من الجهاد و السلاح للتخلص منه ؛ فما دام الواق ع مظلما تحت نير الاستعمار ، و أن الغد مشرق تحت ظلال الاستقلال ، فلابد من الصبر و الفداء ، لأنهما

ثمن الخلاص من الإِسَارِ ، و معانقة الحرية ، و هذا ما صرح به في قوله و هو يشيد باستقلال ليبيا:

لَمْ يك اسْتِقْلاَلُنَا مِنْحَـــــةَ مَانِـــحْ بَـــلْ أَخَذْنَـــاهُ غِـــلاباً واقْتِـــدَارْ
طَـــالَما صُنَّاهُ مَـــا بيْنَ الجَـــوَانِحْ ثُـــــمَّ أَطْلَعْنَـــــاه في الدُّنْيَا مَنَارْ
بالدَّمِ المُهْرَاق فـدي سَـاحِ الجهادِ وعَلَى الأشْلاءِ مِنّـــا والجَمَاجِـــمْ
شَيَّدَ الـرَّحمنُ فـدي خَيْرِ البـِلادِ دَوْلَـــةً كالطَّـــوْدِ أُسّـــاً ودَعَائِمْ

و هذا أيضا ، ما ألح عليه كثيرا و هو يخاطب اليمن :

يَا دَوْلَـــةَ الْجَنُـــوبْ يَـــا بَلْسَمَ الْجِـــرَاحْ
فِي ظُلْمَةِ الْخُطُـــوبْ أَشْرَقْتِ كَالصَّبَـــاحْ
فِـــي حَوْمَةِ الْجِهَـــادْ وَالْحَـــرْبُ فِي ضَرَمْ
وُلِدْتِ فِـــي مِهَـــادْ الْعِـــزِّ وَالشَّـــمَمْ
وَافَـــى بِكِ الْقَضَاءْ لأُمَّـــــةِ الْـــعَـــرَبْ
بُشْـــرَى مِنَ السَّمَاءْ بِالنَّصْـــرِ وَالْغَلَـــبْ

فالشاعر بين صورتين أو واقعين ، واقع كائن ، هو « ظُلْمَةُ الْخُطُوبِ » ، تحت ديجور الاحتلال و بطشه ، وواقع ممكن ، هو « إِشْرَاقَةُ الصَّبَـــاحِ» ، حيث « بَلْسَمُ الْجِـــرَاحِ» وضياء الحرية ؛ لكن قنطرة العبور صعبة ، و لا مَفَرَّ من المرور عبرها لتجاوز هذا الواقع الكائن والانفصال عنه نحو ذلك الواقع الممكن ، و هذه القنطرة هي « حَوْمَةِ الْجِهَـــادْ » و«ضِرَامُ الْحَرْبِ» ، لأن ثمن الحرية يكون دوما بالأنفس و الدماء ، قبل أن يشرق الغد بنصر الله جل وعلا و غَلَبِهِ ، ليستعيد المسلمون عزهم و شَمَمَهُمْ .

و عليه ، فإنه من الواضح جدا ، أن باكثير رحمه الله يضع مُتَلَقِّيهِ بين وضعين مختلفين تمام الاختلاف ، و بين صورتين متضادتين تمام التضاد ، الأولى تعبر دائما عن واقع العالم الإسلامي المعيش بظلمته و هوانه ، و الثانية تعبر دائما عن الواقع المأمول ، بِحُرِّيَّتِه و ضيائه ، و الجسر بينهما ، يكون دائما هو الجهاد و الفداء ، و حسبنا أن نضيف هذا المثال الذي يخاطب فيه أندنوسيا ، لتأكيد ما نذهب إليه ، حيث يقول :

اُثْبُتِـــي يَـــا أَنْدَنُوسْيَـــا كَرَواسِـــيـــكِ الشَّـــوَامِـــخْ
... قُوَّةُ الإيمَانِ تَـــرْعَا كِ وَمَجْـــــدٌ لَـــكِ بَـــاذِخْ
اِسْـــلَمِي يَـــا أَنْدَنُوسْيَا

كَبَرَاكِينِـــــكِ كُونِــي لِلَّذِي يَبْــغِــي كِــيَــادَكْ
وَكَأَرْيَــافِــكِ لِيــنِــي لِلَّـــــذِي يَبْــغِــي ودَادَكْ
إسْــلَمِي يَـــا أنْدَنُوسْيَا
... يَا رِيَاضَ الله فِي الأَرْ ضِ اسْلَــــمِي لِلْمُسْلِمِينَـــا
فَــحَرَامٌ أَنْ تَكُــونِــي طُعْــمَـــــةً لَلْمُعْتَــدِيــنَـــا
إسْــلَمِي يَـــا أنْدَنُوسْيَا

فالعيش في ذُلِّ المعتدي ، و الرضا بالدَّنِيَّةِ حرام ، لأن فيه تفريطا في حقوق المسلمين وبلادهم و دينهم ، فلابد من التخلص من الاستعمار بالثبات و الجلاد و قوة الإيمان التي تحول كل بلاد المسلمين إلى براكين و حمم على العدو ، لِرَدِّ كيده و انتزاع الحرية و السلام منه بقوة الحديد و النار ، ليعود المجد مرة أخرى إلى أهله ، و يحقق الذلة و الهزيمة بالجانب الآخر أيضا ؛ و هذا ما سعى إلى حث شباب الإسلام عليه أيما إلحاح في كافة بلاد الإسلام مشرقا و مغربا ، حيث يقول مثلا في نشيد « وادي اليرموك» :

هيّا إلى الجهادِ فتيانَ العَــرَبْ إلى الجِــهَادِ فالجهادُ قَدْ وَجَــبْ
إلى الجِهَادِ بالقَنَا و بالقضـبْ وبالـرجومِ والقذيـفِ المُلْتَهِبْ
وباليقـين إنَّنَـــا لَنَـــــــــا يا واديَ اليَرْمُوك يا مَجْدَنا التَّالِدْ
إنّــا غـــــداً آتـــــــــوكْ نُعِيــــدُك خَـــالِـــــدْ
و الله لاَ نَـــــــأْلُـــــوكْ فِـــــدًى و لا نَبْـــخَــــلْ
إن الـــــدمَ المَسْفُـــوكْ أَقَـــــلُّ مَـــا نَبْـــــذُلْ
إلى الجِهَــادِ فالجهـــادُ قَـــــدْ وَجَبْ [14]

2 ــ و أما العنصر الثاني من دلالة الفداء و الجهاد ، و المتعلق بفلسطين ، فإن باكثير رحمه الله قد خصها بنشيدين متميزين ، أولهما «الجهاد قد وجب » ، و الثاني عنوانه «حرب

[14] ــ و راجع أيضا أناشيد أخرى ، مثل : «الجلاء» و «صوت الوطن » و «الفتى العربي » و «الفدائي » «وكتائب الشباب» ، و« ليث الجهاد » ،و سواها من الأناشيد التي تلتهب حماسا و إلحاحا كبيرا من باكثير رحمه الله ، على خيار الجهاد ضد المستعمر .

الفداء»[15]، حيث نلاحظ أن الشاعر قد بلغ فيه قمة التوهج والتمرد ضد العدو الصهيوني ، و هو يحث كتائب المجاهدين على الثبات و الجهاد إلى أن تطهر أرض فلسطين من دنس الصهاينة .

و لا أشك في أن باكثير رحمه الله ، كان بحسه الرهيف يدرك عمق مأساة فلسطين من بين سائر بلاد المسلمين ، و كأنه كان يشعر بأن القضية الفلسطينية تستحق من الرعاية و الاهتمام أكثر مما تستحقه باقي بلاد المسلمين ، لأن طبيعة الاستعمار فيها من طينة خاصة ، تأخذ وقتا أطول ، و تستنزف من دماء المسلمين شيئا كثيرا ، لذلك نلمس في المعجم الذي عبر به في هذا النشيد حماسا ممزوجا بالألم و التحرق على القدس ، وتفصيلا أكثر في تصوير بغي الصهاينة ، إلى جانب تحريض أكبر للمجاهدين ، يقول :

تَصَاعَدِي تَصَاعَـــدِي يَا شُعْلَةَ الْفِدَاءْ
تَصَاعَدِي يَـــا غَضْبَـــةَ السَّمَـــاءْ
عَلَـــى الْمُدنِسِيـــنَ دِارَ الأَنْبِيَـــاءْ
عَلَـــى الَّذِيـــنَ شَوَّهُـــوا الْوُجُـــودْ
بِالْبَغْـــيِ وَالْفُسُـــوقِ وَالْجُـــحُـــودْ
عَلَى الْيَهُـــــودْ
حَرْبُ الْفِدَاءِ مِنْكِ كَانَتْ عَدْلاَ عَلَى الْعَدُوِّ سَتَكُونُ الْفَصْـــلاَ
إِنْ يَكُنِ الْفِيلَ فَكُونِي النَّمْـــلاَ يُوسِعُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ قَتْـــلاَ
حَتَّى يَكُونَ مَثَـــلاً فِـــي الْهَالِكِيـــنْ
مَـــــــدَى الـــسِّـــنِـــيـــــنْ
تَطَايَرِي تَطَايَرِي يَا جَذْوَةَ الْفِـــدَاءْ
تَطَايَـــرِي يَـــا نِقْمَـــةَ السَّـــمَـــاءْ
تَطَايَـــرِي كَالنَّـــارِ فِـــي الْهَشِيـــمْ
لِتَقْـــذِفِـــي بِالْمُعْـــتَـــدِي الأَثِـــيـــمْ
وَدَوْلَـــةِ الْمُغْتَـــصِـــبِ الزَّنِـــيـــمْ
إِلَـــــــى الْـــجَـــحِـــيـــــمْ
حَرْبُ الْفِدَاءِ مِنْكِ كَانَتْ عَدْلاَ عَلَى الْعَدُوِّ سَتَكُونُ الْفَصْـــلاَ

---

15 ــ نجد أن باكثير رحمه يتحدث أحيانا عن فلسطين ضمن حديثه ، في أناشيد مختلفة ، عن قضايا التحرر في الوطن العربي ، من ذلك مثلا نشيد : «وكتائب الشباب» و كذلك نشيد «الفدائي» .

إنْ يَكُنِ الْفِيلَ فَكُونِي النَّمْــلاَ   يُوسِعُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ قَتْــلاَ
حَتَّى يَكُونَ مَثَــلاً فِــي الْهَالِكِيــنْ
مَــــــــدَى الـــسِّـــنِــــيــــنْ
حُيِّيــتِ يَا كَتَــائِــبَ الْــفِـدَاءْ
حُيِّيــتِ فِــي الصَّبَــاحِ وَالْمَسَــاءْ
أَحْيَيْــتِ فِــي نُفُوسِنَــا الرَّجَــاءْ
أَنَّ فِلَسْطِيــنَ إِلَيْــنَــا سَتَــعُــودْ
وَتَطْهُــرُ السُّــهُــولُ وَالنُّــجُــودْ
مِــنَ الْــيَهُـــودْ
حَرْبُ الْفِدَاءِ مِنْكِ كَانَتْ عَدْلاَ   عَلَى الْعَدُوِّ سَتَكُونُ الْفَصْــلاَ
إنْ يَكُنِ الْفِيلَ فَكُونِي النَّمْــلاَ   يُوسِعُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ قَتْــلاَ
حَتَّى يَكُونَ مَثَــلاً فِــي الْهَالِكِيــنْ
مَــــــــدَى الـــسِّـــنِــــيــــنْ
بُورِكْتِ يَــا كَتَائِــبَ الْمُجَاهِدِيــنْ
فِي كُلِّ حِصْــنٍ لِلعَــدُوِّ تَنْسِفِيــنْ
فِــي كُــــلِّ لُــغْــمٍ تَزْرَعِــيــنْ
وَكُـــــلِّ خَــــــطٍّ تَقْطَــعِــيــنْ
وَكُـــــلِّ رُعْــــبٍ تَنْــشُــرِيــنْ
فِــــــــي الْــمُــجْــرِمِــيــنْ

فلا يخفى ما في هذا النشيد من الحماس الظاهر الذي يسري في روح المتلقي ، و كأنه يُصْعَقُ بما كان يختلج في صدر باكثير رحمه الله ، فينسجم معه في حماسه وثورته ، كما لا يخفى أيضا ، إصراره على مخاطبة فلسطين و المجاهدين بفعل الأمر غالبا ، لأن الوقت الذي تعيشه فلسطين لا يسمح لخطاب سواه ، لأن العدو له تاريخ عريق في تدنيس القدس و قتل الأنبياء و تشويه الوجود بالبغي و الفسوق و الجحود و الاغتصاب ، و كل أشكال الفساد في الأرض ، حتى استحق النقمة من أهل الأرض ، و الغضب من السماء ، و بالتالي ، فإن إخراجه من فلسطين وتحرير القدس منه مسؤولية عاجلة قبل أن يستفحل أمره ، و يستطير شره .

لهذا فإن المتلقي يلمس في هذا النشيد أمرين لم يلمسهما في باقي أناشيد باكثير رحمه الله، و يحس و كأن الشاعر قد قصد إليهما قصدا ، لخصوصية فلسطين في قلبه ، و خطورة مشكلتها بالنسبة إليه ، و هذان الأمران هما :

أ ــ الحضُّ على مواصلة المقاومة و الإصرار عليها من خلال المعجم الموظف في النشيد .

ب ــ التفصيل الذي عمد إليه في حديثه عن المجاهدين و عن الصهاينة على حد سواء .

فأما العنصر الأول ، فإن الشاعر من خلال النصف الأول من هذا النشيد ، يحث المقاومة على مزيد من الصمود والاستمرار في مدافعة العدو ،كما يظهر بوضوح في تكراره للصيغة الصرفية «تَفَاعَلَ»،الدالة على التدرج في حدوث الشيء مع الاستمرار عليه «تَصَاعَدِي ، تَطَايَرِي»، فهو لا يقنع بالمقاومة ، و إنما يريد منها مزيدا من التصعيد و الاستمرار ، لأن طبيعة العدو الصهيوني ليست كسائر طبائع المستعمرين الذين غزوا العالم الإسلامي لتحقيق أطماع شتى، و إنما هو استعمار معقد يجعل الأهداف العقدية و الدينية على رأس الأهداف التي من أجلها تَسَلَّطَ على فلسطين ، لهذا فإن باكثير رحمه الله كان بِبُعْدِ نَظرِه ، ينظر إليه طوال حياته ، و في كل إبداعه الشعري و النثري و المسرحي بعين القلق و الوجل ، و كان دائما يتوقع منه مزيدا من الشر و العدوان ، و هذا ما وقع فعلا.

لهذا فهو في هذا النشيد ، يريد مزيدا من الجهاد ، و مزيدا من الثبات من المجاهدين ، حيث أتبع الفعل «تَصَاعَدِي » بتعليل مفصل ذكر فيه ــ كما قلنا سابقا ــ جرائم الصهاينة ، ثم أتبع الفعل«تَطَايَرِي» بتعليل آخر ، هو ضرورة إخراج اليهود من فلسطين ، لأن دولتهم أصلا دولة غير شرعية مبنية على البغي و الظلم ، تماما كالزنيم الذي ولد من سفاح .

و الملاحظ إلى جانب ذلك ، أن الشاعر رحمه الله يربط المقاومة في كلتا الحالتين ب«السماء» ، تأكيدا على المرجعية الإسلامية التي ينبغي أن ينطلق منها المجاهدون في فلسطين ، ليكون النصر من عند الله عز وجل حليفهم ، و بالتالي فإن المقاومة الفلسطينية لا تقاوم من أجل الأرض فقط ، و إنما من أجل إعلاء كلمة الله تعالى في الأرض التي باركها الله جل و علا في العالمين ، فجعلها موطنا للأنبياء ، و معراجا لأفضل أنبيائه محمد صلى الله عليه و سلم .

إلى جانب ذلك ، نجد أن الشاعر قد ربط أيضا بين الحالتين السابقتين و عناصر الإشراق والنور ، حيث ربط بين «تَصَاعَدِي » و«شَعْلَةَ الْفِدَاءِ» ، و بين « تَطَايَرِي »و« جَذْوَةَ الْفِــدَاءِ»، والشعلة و الجذوة ،كلتاهما تدل على النور و الضياء ،و كأنه يريد أن يقول بأن المقاومة أمل

يحمل انبثاق فجر جديد مضيء يقضي على ظلام الصهاينة و ظلمهم الذي اسود به الوجود بعامة ، وفلسطين بخاصة،لهذا ختم القسم الأول من النشيد بهذا الهدف الأسمى الذي كان يحلم به ،فقال :

أَحْيَيْـتِ فِـي نُفُوسِنَـا الرَّجَـاءْ
أَنَّ فِلَسْطِيـنَ إِلَيْـنَـا سَتَـعُـودْ
وَتَطْهُـرُ السُّـهُـولُ وَالنُّـجُـودْ
مِـنَ الْـيَهُودْ

لهذا جاء وقع فعل « أَحْيَيْـتِ» ، وقعا خاصا في نفس المتلقي ، يحس و كأنه نشط من عقال ، أو خرج من نفق مسدود ، و كأن الموت الذي كان مخيما على بلاد فلسطين قد انقلب فجأة ، و بفعل المقاومة إلى حياة نَفَخَتْ روح الرجاء في نفوس المسلمين ، و بأن فلسطين لابد وأن تعود إلى أهلها ، و ينقلب الصهاينة صاغرين مهما علوا في الأرض أو طال الزمان .

و أما العنصر الثاني ، و الم تعلق بالتفصيل ، فإنه ينبني ضرورة على ما سبق ، و يتأسس عليه، تماما كما قلت سابقا بأن باكثير رحمه الله يبني دائما نتائج أناشيده على مقدماتها ، لذلك فإن الحياة/ الأمل ، بعد الموت/ اليأس ، لا يأتي عبثا ، و إنما يأتي بفعل المقاومة و الجهاد و بطولات المجاهدين ، لهذا فلابد من كلمة حماسية يوجهها إليهم الشاعر تكون نابعة من صميم فؤاده ، و هو ما يظهر من تكراره لفعلي « حُيِّيـتِ» و« بُورِكْتِ » ، تأكيدا منه على رضاه المطلق على أداء المقاومة الفلسطينية، و هو ما يظهر أيضا في تعداده المفصل لمظاهر بطولات المجاهدين ، من نسف للحصون ، و زرع للألغام ، و قطع لخطوط إمداد العدو واتصالاته ، و نشر الرعب في صفوف جنوده المجرمين في كل غَوْرٍ أو تَلٍّ من بلاد فلسطين المباركة .

و مرة أخرى ، يربط باكثير رحمه الله المقاومة الفلسطينية بالسماء ، فيدعو لها برعاية/نصر الله عز وجل ، حيث يقول في تَأَثُّرٍ بيِّنٍ ، و تضرع عميق :

يَـرْعَـاكِ رَبُّ الْعَالَـمِـيـنْ
فِـي كُـلِّ حِـيـنْ

و هنا لا تخفى دلالة الفعل المضارع الدال على الحال و الاستقبال «يَرْعَاكِ»، بما يحيل عليه من دعاء باستمرار العناية الإلهية لهذه المقاومة في كل حين ، وكأنه بذلك يريد أن يرد الأعجاز على الصدور، بالتلميح إلى أن الاستمرار في الجهاد في سبيل الله يعني استمرار نصرة الله عز وجل للمجاهدين،والدفاع عنهم: ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الحج ، الآية 36 ، فَيُطَهِّرُ الله جل و علا الأرض المباركة من دنس المجرمين :

فِي كُلِّ قَلْبٍ كَمْ قُلُوبُنَـــا حَنِينْ
إِلَيْكُمُو يَـــا صَفْوَةَ الْمُجَاهِدِينْ
تَهْفُو لَكُمْ أَكْبَادُنَا فِي كُـــلِّ حِينْ
أَنْتُمْ أُسُودُنَـــا فَحَـــرِّرُوا الْعَرِينْ
أَجْمَعَ مِنْ عَكَا إِلَى طُـــورِ سِنِينْ
لِلْعَائِدِينْ

خلاصة الأمر في كل هذه الدلالات المشار إليها في هذه الفقرة من هذا البحث المتواضع ، أن باكثير رحمه الله ، يلتزم دائما بأمرين أساسيين أراهما ضروريين للكشف عن البنية الدلالية لكل هذه الباقة من الأناشيد ، و هما :

أ ــ بناء المقدمات على النتائج : بحيث إنه يلح دائما على هدف واحد ، هو الحرية و الاستقلال من قيود الاستعمار ، لكن هذا الهدف لا يتحقق أبدا إلا بالمقاومة و الجهاد و التضحية بالنفوس والدماء ، لأن الجامع بين هذا الاستعمار الغربي المتوحش ، و العالم الإسلامي المغلوب على أمره ، هو علاقة صدام و صراع ، بدأها المستعمر بالتسلط و التجبر ، و على العالم الإسلامي أن ينهيها بالحديد و النار ، لهذا جاءت هذه الأناشيد كلها مشيدة بالجهاد و المجاهدين ، و متغنية بالحرية والاستقلال ، و مبشرة بفجر مشرق أوشك على الميلاد ؛ وعليه، فالحريّ هي النتيجة التي لا تتحقق إلا باشتراط المقدمة التي هي الجهاد و سواعد المجاهدين .

ب ــ الإلحاح على تصوير الواقع الكائن بالظلمة ، و تصوير الواقع الممكن بالنور : و هذا واضح جدا في غير ما موطن ، كما بينا ذلك من قبل ، فباكثير رحمه الله ، لم يكن يرى في واقع العالم الإسلامي يومئذ ، إلا الظلام و السواد تحت ظلم المستعمر و بطشه ، و هو واقع مرفوض بكل ما يحمله من مهانة و إبادة لعزة إسلامية لها عهد طويل مع الزمن منذ البعثة النبوية الشريفة ، لهذا تحمس رحمه الله للجهاد و المجاهدين ، لما يحملونه من بشارة الحرية ، كي تشرق في سماء العالم الإسلامي ، ليسترد بهاءه و بريقه الحضاري من جديد .

2 ــ العناصر الفنية في أناشيد باكثير رحمه الله :

بكل إنصاف ، أقول بأن أناشيد باكثير رحمه الله غنية جدا من حيث الأدوات الفنية ، مما يدل عن باع طويل في القول الشعري ، و تمكن ظاهر من ناصيته ، فهي ثرية ثراء واضحا بكل الأساليب البلاغية المختلفة ، ناهيك عن تمكنه من تصاريف اللغة العربية و طرق تعبيرها ، مما يؤكد نهله من مواعين اللغة العربية الصافية و مصادرها المختلفة ؛ لكن قبل الحديث عن نماذج

محددة من هذا كله ، بقدر ما يسمح المقام ، أود أن أعرج على أحد أهم ركائز أناشيد باكثير ، وهو بناؤها الفني الدائري المتميز الذي التزم به في كل أناشيده .

أ ــ البناء الفني الدائري في أناشيد باكثير رحمه الله :

إن عناية باكثير رحمه الله بالبناء الفني في أناشيده ظاهر بلا ريب ، حيث إنه قد أخضع كل نشيد منها لبناء محكم ، قوامه التدرج في تحقيق الأهداف التي يريدها أن تتحقق في واقع العالم الإسلامي عِيَاناً ؟! ؛ وبطريقة أخرى ، فقد أشرنا قبل قليل إلى أن الدراسة الأفقية لكل دلالات هذه الأناشيد ، تفضي إلى تحديد إحدى أهم البنى الأساسية فيها ، و المتعلقة ببناء النتائج على المقدمات؛ و هنا أيضا ــ في البناء الفني ــ تصح هذه القاعدة إذا درسنا كل نشيد على حدة دراسة عمودية ، حيث يظهر بوضوح بأن الهيكل العام مُوَحَّدٌ بين كل هذه الأناشيد .

فإذا أخذنا مثلا نشيد« لك العلا يا ليبيا» ، نجده مبنيا على مراحل محددة ، تبدأ بتنويه باكثير رحمه الله بالإشراق و التلألؤ الذي دلفت إليه ليبيا بعدما انسلخت من ظلمة المستعمر ؛ لكن هذا الهدف / النتيجة ، لم يتحقق إلا بسواعد الأبطال الليبيين و جهادهم ، ثم إنه إذا كان هذا الهدف خاصا ، حققه الليبيون ، فإن الشاعر اعتبره هدفا عاما ،يجب أن تتطلع إليه أعناق كل العرب و المسلمين ، و في الأخير ختم النشيد بما بدأه به من إحساس بالزهو بالحرية بالإنجاز الذي حققته ليبيا كما قلنا ؛ و خلال كل مرحلة من هذه المراحل نجد الشاعر رحمه الله يفصل في نطاق ما تتحدث عنه ، ثم يمهد بما يشبه حسن التخلص ، لينتقل إلى المرحلة الموالية ، إلى أن يأتي على ختم النشيد كما بَدَأَ ، على نحو دائري واضح .

و هذا البناء الدائري يسري على كل الأناشيد بلا استثناء [16]، بما في ذلك نشيد«حرب الفداء» ، الذي خَصَّ به فلسطين التي و إن لم تكن قد تخلصت بعدُ من اغتصاب الصهاينة ، إلا أن الشاعر رحمه الله ، كان يرى في انطلاق شرارة المقاومة الفلسطينية أملا لاستقلال فلسطين وعودتها إلى ديار المسلمين ، فكأنه كان يتحدث عن نتيجة وشيكة الوقوع في حياته ، بما كان يبصره من استماتة الفلسطينيين ، و جَلَدِهِمْ في جهاد العدو الصهيوني .

---

16 ــ و لا نستثني هنا سوى بعض الأناشيد التي لها بعد إجتماعي ، مثل« الأمّ » و «بناتُ الرشاد» ، و هو نشيد لا يخلو من موضوع الفداء نفسه ، ونشيد « أمّ قُوَيق» ؛ ونشيد «أيها النِّيلُ أُحِبُّك» و هو نشيد فيه من التأمل ما فيه .

و بالتالي فإن البناء الدائري لأناشيد باكثير رحمه الله ، بناء ثابت ، له مقدمة ينطلق منها، و نتيجة ينتهي إليها ، و لنأخذ نشيد « دولة الجنوب» لِقِصَرِهِ ، مثلا على ما نذهب إليه، حتى تتضح لنا معالم هذا البناء أكثر ، حيث يقول :

يَا دَوْلَـــةَ الْجَنُـــوبْ　　يَـــا بَلْسَمَ الْجِـــرَاحْ
فِي ظُلْمَةِ الْخُطُــوبْ　　أَشْرَقْتِ كَالصَّبَــاحْ
فِــي حَوْمَةِ الْجِهَــادْ　　وَالْحَـــرْبُ فِي ضَرَمْ
وُلِدْتِ فِــي مِهَــادْ　　الْعِـــزِّ وَالشَّـــمَمْ
وَافَــى بِكِ الْقَضَاءْ　　لأُمَّــــةِ الْــعَــرَبْ
بُشْـــرَى مِنَ السَّمَاءْ　　بِالنَّصْــرِ وَالْغَلَــبْ
اللهُ أَكْـــبَـــــرُ　　فِي يَوْمِــكِ الْعَظِيــمْ
عَــادٌ وَحِمْــيَــرُ　　هَبَّــا مِــنَ الرَّمِيــمْ
يَمْشِي مَعَ الْيَمَــنْ　　فِــي دَارَةِ الشَّــرَفْ
وَالْوِحْـدَةُ الثَّمَــنْ　　وَالسُّؤْدَدُ الْهَـــدَفْ
لِــوَاؤُكِ الْجَدِيــدْ　　يُمْنٌ عَلَى الْعَــرَبْ
فَالْيَمَــنُ السَّعِيــدْ　　مِيـــلاَدُهُ اقْتَــرَبْ

فنلاحظ أن عناصر النشيد محسوبة و محددة ، هي :

أ ــ النتيجة : الإشراق بعد الظلمة / الحرية بع الاستعمار .

ب ـــالمقدمة / الوسيلة : الجهاد و الكفاح .

ج ــ الأمل في أن يتحقق للعالم الإسلامي ميلاد جديد ، كالميلاد الذي تحقق لليمن .

فالشاعر رحمه الله ينهي نشيده بما بدأه به ، و هو الابتهاج بما تحقق في اليمن ، حيث بدأ بالحديث عن الإشراق ، بكل ما يحمله من انبلاج صبح منير بعد ليل طويل ، و انتهى بالحديث عن هذه الدلالة نفسها بطريقة أخرى أكثر دلالة و رمزية « ميلاد جديد» ، و كأنه رحمه الله ، لا يرى اكتمال النشوة الكبرى إلا بعد تحقق الحرية / الميلاد الجديد لكل بلاد المسلمين ، و ليس في بلد دون آخر .

لهذا فإنه رحمه الله ، حرص في هذه الباقة من الأناشيد كلها ، على أن يبدأ بدلالة محددة ، و أن ينتهي بها كما هي ، فيكتمل بناء النشيد في شكل دائري كما قلنا .

أما نشيد «لحن السلام» ، فإننا نجد الشاعر رحمه ، قد أخضعه لهذا البناء الدائري نفسه ، وإن لم يتناول فيه الموضوع نفسه الذي تناوله في باقي الأناشيد ، إلا أن البناء في هذا النشيد ، وإن لم يكن دلاليا ، فإنه فَنِّيٌّ ، نَصَّ عليه بتكرار العبارات نفسها التي أوردها في مطلع النشيد مع لاَزِمَتِهِ ، فقد بدأه بقوله :

لَحْــنٌ جَميــلٌ طَــــابَ فِـــي الأَسْمَـــاعِ لَحْنـــاً
وَاسْــمُ الــسّــلاَمِ

ثم أنهاه بهذه الأشطر الثلاثة نفسها ، مع تقديم اللازمة فقط علن البيت ، فقال :

وَاسْــمُ الــسّــلاَمِ
لَحْــنٌ جَميــلٌ طَــــابَ فِـــي الأَسْمَـــاعِ لَحْنـــاً

و هذا ما فعله أيضا في نشيد «مصر يا أرض الخلود » ، حيث بدأه أيضا ببيتين كررهما أحد عشر مرة في النص كله عقب إنشاده لكل بيتين من الشعر ، و قد افتتحه بهما ، و بهما ختمه، و هما :

بِهَـــواكِ قَاطِبَـــةً نَدِيْـــنْ وَإِلَيـــكِ يَامِصْرُ الحَـــــنِينْ
هَلْ يَاكِـــنَـــانَـــةُ تَعْلَـــمِينْ أَنّــا نَمُــوتُ وتَسْــلَــمِينْ

و بهذا يتضح بأن بناء أناشيد باكثير رحمه الله بناء دائري متكامل ، تنتهي دائما بما تبتدئ به ، سواء كان ذلك بالنص على الدلالة نفسها ، أو بتكرار مطلع النشيد كما هو حَرْفاً في آخره، إمعانا منه رحمه الله في هذه الدائرية في البناء .

ب ــ الأساليب البيانية :

قلت قبل قليل بأن بلكثير رحمه الله ، يعمد إلى إكمال بناء أناشيده إما دلاليا أو فنيا ، و في كلتا الحالتين أجاد بلا ريب ، لكن الجانب الدلالي في بعض الأساليب البيانية التي زين بها أناشيده، قد بلغ الغاية في البهاء و الجمال الفني ، يستهوي المتلقي و يستحوذ عليه في جو أثيري خلاب ، حيث نراه يعمد إلى تشبيهات و استعارات شفافة تكاد تنضح برمزية بارعة ، لا أشك مطلقا في أنه رحمه الله قد بذَّ بها معاصريه من شعراء الأربعينيات ، وما تلاها ، من القرن الماضي .

صحيح أن طبيعة النشيد لا تحتمل الرمزية و لا الإغراب في التشبيه و الاستعارة ، ح يث إن المقصود منه هو الوصول إلى أكبر قدر ممكن من المتلقين من المجتمع الإسلامي ، سواء كانوا من العامة أو من الخاصة ، لذلك فإن طبيعة المتلقي المستهدف ، تستدعي لغة سهلة لذيذة الإيقاع للتأثير عليه ، و لِنَقْلِ طبيعة العواطف المعبر عنها من وجدان المبدع إلى وجد ان المتلقي

كما هي ، بما فيها من حماس في المشاعر و استنفار للحواس ؛ لكن باكثير رحمه الله ــ و هو يعلم هذا بما هو شاعر متمرس ــ استطاع أن يوفق بين مقاصد الأناشيد في أجلى مظاهرها ، و بين توظيف تعابير ذات شحنة رمزية عالية ، تشع أملا و بريقا تستهوي المتلقي أياً كان مستواه الثقافي ؛ و حسبنا من ذلك بعض الأمثلة للاستئناس فقط ، حيث يقول مثلا :

يَا دَوْلَــةَ الْجَنُــوبْ يَــا بَلْسَمَ الْجِــرَاحْ
فِي ظُلْمَةِ الْخُطُــوبْ أَشْرَقْتِ كَالصَّبَــاحْ

ففضلا عن الانشراح الذي يحس به المتلقي ، أو قل الشفاء الذي يشعر بدبيبه بين جوانحه و هو يسمع عبارة « بَلْسَمَ الْجِــرَاحْ » ، فإن عبارة « أَشْرَقْتِ كَالصَّبَــاحْ » ، تبلغ بالمتلقي قمة الانتشاء ، فالجملة و إن كانت عبارة عن تعبير بسيط ، إلا أن حمولتها الدلالية تنضح ببعد رمزي يحمل لكل معاني الأمل و النور ، بعد ليل طويل حالك تخلص منه اليمن ، تَنَفَّسَ معه صُبْحُ الحرية بكل عُمْقٍ مستطاع ؛ و ما يزيد من بهاء هذا التعبير ، وجودُه جنبا إلى جنب مع عبارة «بلسم الجــراحْ» ، حيث تكتمل نشوة المتلقي ، و يحس بما كان يحس به المبدع رحمه الله ، وهو يتابع هذا الانفراج الذي سرى بردا و سلاما في عروقه .

ثم إن هذا التعبير يصل مداه في آخر النشيد ، حين تَوَّجَهُ الشاعر رحمه الله بقوله :

فَالْيَمَــنُ السَّعِيــدْ مِيــلاَدُهُ اقْتَــرَبْ

حيث يحس المتلقي فعلا ، بميلاد جديد بعد مخاض عسير ، فيحس بدفقات شعورية لذيذة تدغدغ أعماقه ، خاصة و أنه قال قبل ذلك بقليل :

عَــادٌ وَحِمْــيَــرُ هَبَّا مِــنَ الرَّمِيــمْ

حتى لكأن المتلقي يبصر بهذا التعبير المجازي، صورة تَبَابِعَةِ اليمن وأَقْيَالِهَا تتجسد أمامه عيانا، ليتشكل الجسد اليمني العريق من جديد ، و يستوي أمامه مُنْتَصِبَ القامة عملاقا ، ينفض عنه غبار الذل و الهوان في تَحَدٍّ واضح ، ليعلن هذا الميلاد الجديد الذي بَشَّرَ به الشاعر رحمه الله .

و هذا الإحساس ينتاب المتلقي أيضا في نشيد «حرب الفداء» ، حيث يحس و هو يقرأ «تَصَاعَدِي تَصَاعَدِي» ، بأن جوانحه تَسْتَعِرُّ و تشتعل التحاما مع أجساد المجاهدين ،ليتقدم إلى الأمام للدفاع عن فلسطين ضد الصهاينة المعتدين ، خاصة و أن الشاعر نفسه كان يحس بهذا الإحساس نفسه ، لذلك عمد إلى هذه التعابير المجازية الرمزية بالدرجة الأولى «شُعْلَةُ الفِدَاءِ وغَضْبَةُ السَّمَاءِ ،و جَذْوَةُ الْفِدَاءِ ونِقْمَةُ السَّمَاءِ» فساوى بين هذه العبارات التي ، و إن كانت تثري

النص إيقاعيا و لاشك ، إلا أن الإثراء الدلالي و الفني بيِّنٌ فيها و لا شك ، حيث يحس المتلقي باشتعال جذوة المقاومة والفداء غضبا لفلسطين و حنقا على الصهاينة ، ليسترسل النشيد على هذا النحو ، حتى يصل معه الشاعر إلى قوله :

أَنْتُمْ أُسُودُنَـــا فَحَـــرِّرُوا الْعَرِيـــنْ

حيث تصل الاستعارات إلى القمة ، لأن ذلك الاشتعال الذي بدأ به الشاعر نشيده ، و تلك الغضبة الْمُضَرِيَّةُ للقدس ، قام بها أبطال ليسوا ككل الأبطال ، و إنما هم أسود استحوذ العدو على عرينها ، فهبت لاستعادته في هيجان جهادي عادل ، اجتاح السهول و النجود الفلسطينية ، نصرة للعدل ، و إعادة للحق إلى أهله .

فهذه التعابير بثرائها الدلالي ، و تميزها الفني ، تظل مع ذلك قريبة المأخذ من أي صنف من أصناف المتلقين ، و تؤدي دورها المنوط بها لديهم كلهم ، فبقدر ما تثرى مع العامة لسهولة وعمق مغزاها ، فإنها تزداد ثراء مع الخاصة ، لما يلمسونه فيها من عمق الفكرة ، و سمو العبارة إلى مصاف الإبداع الحقيقي ، بحث إنها لا تبقى مجرد تشبيهات و استعارات و كنايات فقط ، و إنما تتجاوز بشحنتها الدلالية لتلج عالم الرمز الشفاف الذي ينتشي معه المتلقي،أي مُتَلَقٍّ ، أيما انتشاء.

3 ــ الإيقاع في أناشيد باكثير رحمه الله :

بعد هذا كله ، يأتي دور الحديث عن الإيقاع بكل عناصره ، بحسب ما يتطلبه المقام ؛ فعادة ما ينقسم الحديث عن الإيقاع إلى قسمين :

أ ــ الأوزان .

ب ــ الأساليب البديعية في علاقتها بالأصوات و أجراسها .

أ ــ الأوزان : فمن المعلوم أن أوزان الأناشيد شبيهة بأوزان الظواهر الإيقاعية التي عرفها الشعر العربي في مختلف مراحله ، و قد تحدث عن هذا غير واحد من الدارسين العرب ، مما لا يتسع الحديث عنه الآن [17] ؛ حيث لجأ الشعراء العرب إلى التصرف في أوزان الشعر العربي تصرفا يتناسب مع طبيعة إبداعهم ، فيرتكبون زحافات و علا مختلفة تخرج عما هو معروف في عرف

---

[17] ــ يراجع في هذا الصدد ما تحدث به الدكتور عبد الله الطيب رحمه الله بتفصيل عن الأوزان القصار، في كتابه القيم " المرشد إلى فهم أشعار العرب " ، دار الفكر ، الطبعة الثانية **1970** ، المجلد الأول الجزء الأول ص **78** و ما بعدها ، و راجع أيضا الفصل السابع من " موسيقى الشعر " للدكتور إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، الطبعة السادسة ، **1988** ، ص **209** وما بعدها .

العروضيين ، أو يمزجون بين البحور المختلفة لتشكيل إيقاع يرونه مناسبا لدفقاتهم الشعورية التي يصدرون عنها ، أو تراهم يعودون إلى أوزان كانت شائعة في الشعر العربي فأصبحت مهجورة ، أو سوى ذلك مما أحال عليه غير واحد من الدارسين العرب قديما و حديثا ، في المشرق ، أو في المغرب و الأندلس .

و أوزان أناشيد باكثير رحمه لا تختلف عن هذه الظواهر المشار إليها ، خاصة و أن اختيار الأوزان مما يُرَكَّزُ عليه غالبا في تأليف الأناشيد بغية الزيادة في تحميس المتلقي و التأثير عليه [18] ، لهذا فإن أول ما نلاحظه في أوزان أناشيد باكثير ، أنها أوزان قصيرة ككل أوزان الأناشيد في الشعر العربي الحديث و القديم ، بحيث لجأ باكثير رحمه في جلها إلى مجزوء الرجز [19]، فتصرف في الزحافات و العلل على نحو خاص يذكر ببعض أوزان الرجز المجزوء التي تحدث عنها الدكتور عبد الله الطيب رحمه [20] ، ولم يخالف إلا في نشيد واحد ، و هو « إلى أندنوسيا الباسلة»، حيث نظمه على مجزوء الرمل (فَاعِلاَتُنْ ــ فَاعِلاَتُنْ) × مرتين ، و مثال ذلك ، قوله رحمه الله :

لاَ تُبَـــــــالِـــــي/ بِالْغَـــــــــــوَادِي فَالْـعَـــــــــــوَادِي /
مِـــنْ سِـــلاَحِـــــك

– () – – () – () / – () – () – – () – () – – () – / () – () – – ()
– ()

فـــا عـــلا تـــن / فـــا عـــلا تـــن فـــا عـــلا تـــن / فـــا عـــلا تـــن

و أحسب أن اختيار باكثير رحمه الله بحر الرجز مجزوءا ، لأغلب أناشي ده ، إنما هو اختيار آت من إحساسه بخفة هذا الوزن أولا ، و لإحساسه باستجابته لدفقاته الشعورية ثانيا ، و لإيقاعه الذي يَسْهُلُ حِفْظُهُ على المتلقي ، بل و التفاعل معه ثالثا ، و هذا هو الأهم ؛ خاصة و أن

---

[18] ــ الرؤية و الفن في الشعر العربي الحديث بالمغرب ، مرجع سابق ، ص **226 ــ 227** .

[19] ــ أقول بأن إعادة شكل بعض الأناشيد من مصادرها الخطية ، كنشيد " لحن السلام " ، مثلا ، يظْهِ رُ بأن الشاعر رحمه الله ، قد نظمه على بحر المنسرح المنهوك ، بتفعيلة " مُسْتَفْعِلُنْ مَفْعُولُنْ " ، و الذي يعتبره الدكتور عبد الله الطيب رحمه الله ، من الرجز ، راجع المرشد **1 /1 / 81** ؛ و الله أعلم .

[20] ــ المرشد إلى فهم أشعار العرب ، **1 / 1/ 81** .

الشعراء المحدثين نظموا الأناشيد المدرسية التي تعد بالدرجة الأولى للحفظ و الإنشاد على هذا الوزن الذي أجاد الدكتور عبد الله الطيب رحمه الله في الحديث عنه [21].

ب ــ الأساليب البديعية في علاقتها بالأصوات و أجراسها :

و لعل أبرز ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق ، هو «التكرار »، باعتباره من أهم الظواهر التي يعمد إليها كل الشعراء في نظم الأناشيد ، لما فيه من إثراء لدلالات النص ، و لدوره أيضا في بنائه الفني ، ناهيك عن دوره المتميز في إيقاعه .

فمن المعلوم أن التكرار في أي نص شعري سواء كان نشيدا أو سواه ، إنما يأتي لثلاثة أغراض ، هي: « 1- التكرار المراد به تقوية النغم .

2 - التكرار المراد به تقوية المعاني الصورية .

3 - التكرر المراد به تقوية المعاني التفصيلية .

وهذه الأنواع الثلاثة قد تلتقي جميعها في بعض التكرار الذي يجي ء به الشعراء وقد يلتقي اثنان منها»[22] ، و باكثير رحمه الله قصد إلى هذه الغايات الثلاث أجمعها ، و ذلك من خلال لجوئه إلى توظيف التكرار بطريقتين ، هما :

أ ــ تكرار كلمة بعينها .

ب ــ تكرار أبيات بكاملها ، و التي تكون بمثابة لازمة النشيد .

فأما تكرار كلمة بعينها ، فظاهر جدا في كل الأناشيد ، من ذلك مثلا تكرار لفظة « الحب» عشر مرات في نشيد « لَحْــنُ الــسَّــلاَم »و كلمات «تَصَاعَدِي و تَطَايَرِي»في نشيد «حرب الفداء» ، و سوى هذا كثير جدا .

و أما تكرار أبيات بعينها ، فهو ظاهر أيضا في كل الأناشيد، من ذلك مثلا ، تكرار «لَحْــنُ الــسَّــلاَم» ثماني مرات في نشيد« لَحْــنُ الــسَّــلاَم » ، و تكرار البيتين :

حَرْبُ الْفِدَاءِ مِنْكِ كَانَتْ عَدْلاَ عَلَى الْعَدُوِّ سَتَكُونُ الْفَصْلاَ

---

[21] ــ المرشد إلى فهم أشعار العرب ، 1 / 1/ 81 و ما بعدها .

[22] ــ نفسه 1/ 2 / 495 ، وراجع أيضا بتفصيل أغراض التكرير الجزئية في " التكرير بين المثير والتأثير" د. عز الدين علي السيد ، عالم الكتب ، الطبعة الثانية 1986 ، ص 114 وما بعدها ، وراجع بتفصيل أكثر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين ابن االأثير ، تقديم وتعليق د . أحمد الحوفي ، و د. بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة 1973 . ج / 3 ص3 وما بعدها .

إِنْ يَكُنِ الْفِيلَ فَكُونِي النَّمْــلاَ   يُوسِعُهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ قَتْــلاَ

في نشيد «حرب الفداء» ؛ و تكرار البيتين :

بِهَـــواكِ قَاطِبَـــةً نَدِيْــنْ   وَإِلَيــكِ يَا مِصرُ الحَـــنِينْ

هَلْ يَا كِــنَــانَــةُ تَعْلَــمِينْ   أَنّــا نَمُــوتُ وتَسْــلَــمِينْ

في نشيد «مصر يا أرض الخلود » ؛ إلى غير ذلك من النماذج التي عمد باكثير رحمه إلى تكرارها في هذه الباقة من الأناشيد ، بغية إثراء دلالاتها ، كما قلنا ، و لمزيد من التأثير على المتلقي أيضا .

ينضاف إلى التكرار، ما يراه المتلقي مهيمنا على هذ ه الأناشيد من أساليب الطباق و المقابلة، حيث عمد باكثير رحمه الله إلى مقابلة كلمة بكلمة أخرى تضادها سلبا أو إيجابا ، كما قابل بين معنى بكامله بمعنى آخر يضاده بألفاظه و معانيه ، و هذا شائع في أناشيده رحمه الله ، فنجد مثلا «الشروق و الغروب ــ الظلمة و النور ــ السفوح و الجبال ــ الأرض و السماء ــ العيش و الموت ــ الصباح و المساء» ، و غير هذا كثير .

و لا غرابة في أن يتوسل باكثير رحمه الله بالطباق و المقابلة ، لأنه كان يريد أن يتجاوز واقعا مظلما ، ليرتاد آخر مشرقا يختلف عنه اختلافا كليا ، بما يمثله الواقع الأ ول من استعمار و ظلام ، وما يمثله الثاني من تحرر و إشراق ، فطبيعة التصوير تستدعي المقابلة بين الصور و المعاني .

خلاصة :

أخيرا ، فإن إبداع باكثير رحمه الله في أناشيده ، لا يقل تألقا و تمكنا عن إبداعه فيما سواها من الفنون التي برع فيها ، فقد حملت هذه الأناشيد كل أمانيه التي كان يحلم بتحقيقها في العالم الإسلامي ، لكي يراه و قد تحرر من قيود الاستعمار الغربي المتوحش ، ليعانق الحرية بكل ما أوتي من قوة ، إلا أنه رحمه الله ، كان يرى أن الطريق إلى هذا ينبغي أن يُعَدَّ له الرجال المجاهدون المخلصون ، حتى يتمكنوا من رفع التحدي و قهر المعتدي ، لتعود راية القرآن الكريم في كل أنحاء البلاد الإسلامية خَفَّاقَةً عَالِيَةً ،لهذا رأيناه يستبشر بكل نصر يتحقق في كل شبر من أرض المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها ، ناهيك عن احتفائه البيِّن باندلاع الجهاد الفلسطيني ضد العدو الصهيوني ، و حرصه على شد أزر الفلسطينيين بنشيده الذي خصهم به مُحَرِّضاً و مناصرا .

كل هذا عبر عنه بأدوات فنية تبرهن على مدى تمكنه من ناصية الشعر ، حيث أخضع أناشيده لبناء فَنِّيٍّ دائري محكم ، رصعه بأساليب بيانية من تشبيهات و استعارات ، بل و رموز أيضا ، يضفي عليها جَوّاً أثيريا خلابا ، يزداد بهاء مع ذلك الإيقاع المنساب انسيابا عذبا حينا ، كما يَتَكَفَّأُ دَفَّاقاً مزلزلا أحيانا أخرى ، زلزلة كتائب المجاهدين لحصون الاستعمار، لانتزاع حقهم في التحرر و الاستقلال ، لتعود إليهم ينابيع الإيمان صافية كما كانت في هذه الأمة أول مرة .